

ادب الناشئة القصصى وعلوم المستقبل

للدكتورة

عزة الغنسى

### أدب الناشئة القصصى

د. عزه الغنم

وعلوم المستقبل

حتى أطفالنا - رجال الغد وصانعو المستقبل الأمة - باهتمام العلماء فى مجالات التربية وعلم النفس والأدب على مر السنين . لقد صارت الطفولة فى عصرنا مهمة صعبة باعتبارها أهم مرحلة فى بناء الانسان ، وصار الأدب الذى يقدم للأطفال أبرز ما يطرح لإعداده هذه المرحلة ، وظهر أن " أدب الأطفال ، أيسر طريق لتبصير الطفل بالحياة ، وذلك عن طريق تقديم خبرات السلف وتطلعات برؤى المستقبل الذى يحمل بين طياته كل طريف يطلق خياله ويفتح ظفاته الإبداعية . والمعروف أن الطفل بلا خيال يفتقد الإبتكار والقدرة على العمل الإيجابى . ومن ثم يجب أن ننمى خياله بطريقة موجهة صحيحة ، وليس أعظم من تقديم الخيال العلمى له ،

على أنه من الضرورى أن نعترف بأن خيال الطفل كما يقول " بيير بيلثيه " قد أصيب بالمرض ، ولابد له من علاج سريع . أما سبب مرضه فهو تأثير الإعلانات وحلقات الإذاعة والتلفزيون ومغامرات السوبرمان والكومكس . أو بمعنى آخر تزييف الكبار للخيار واتخاذهم وسيلة الى الإنارة ، وأما العلاج فهو أن ندع الطفل يكتب ويرسم كل ما ترسب فى عقله الباطن فيتخلص من قلقه أو مخاوفه . وقد جرب " بيلثيه " هذا العلاج واستطاع أن يستدرج خيال الأطفال ويطلقه من داخلهم على هيئة دراكولا وزورو ، وحلقات الرعب والشيطان فى صور يرسمونها بأنفسهم (١) .

إن الخيال أثنى ما يمتلكه الفرد فى رأى ولتون Y welton ذلك أن " رقى النوع الإنسانى يرجع إلى شيئين هما : تخيل أمور أفضل من تلك التى فى بيئتنا ، وبذل الجهود فى سبيل إبرازها إلى عالم الحقيقة ، وما الكنوز التى ورثناها عن

(١) أنظر د. على الحديدى: فى أدب الاطفال ١٠٢ ومابعدها ( ط الانجلو ، ١٩٧٦ )

الماضى إلا صوراً مجسمة للتخيلات ، سواء فى العلوم ، أم الآداب ، أم الموسيقى ، أم القانون ، أم الأنظمة الاجتماعية أم الأخلاق أم العقائد الدينية ، إذ أنه من المستحيل أن يتصور الإنسان كائناً أعلى منه منزلة بدون قدرته علمى التخيل (١).

هكذا يلعب الخيال دوراً بارزاً حتى فى أكثر العلوم جدية ، فهو روح الفنون والعلوم والآداب ، ومحرك الابتكار وهو القوة التى رافقت تطور البشرية دافعة ، ومفكرة ، وملهمة . وهو الأساس فى كل نشاط إبداعى .

وإذا كان لأدب الأطفال نصيب كبير فى تنمية القدرات العقلية والفكرية للطفل فإن أدب الخيال العلمى يتسع للخيال المبدع الذى يبشر بالإنجاز العلمى ويمهد له السبيل ، وهو وثيق الصلة بالتطور التكنولوجى السريع فى العالم ، ويتنبأ بما سوف تكون عليه الجادة فى المستقبل .

وهذا النوع من الأدب ارتبط بالأساطير والحكايات الخرافية التى عبرت عن نزوع الإنسان إلى الأما وراء وإلى الفضاء فى محاولة لسبر أغواره هذا قبل ان يعنى واقعهم: والآن وبعد أن تغيرت العقلية نتيجة للثورات التكنولوجية انطلق الكتاب بخيالهم ليكتبوا قصصاً تتحدث عن الآتى والمحتمل ، وتتخذ من الإنجازات العلمية مضمونها . وقد ارتبط هذا النوع من القصص بأديبين: الأول فرنسى وهو جول فيرن ( ١٨٢٨ - ١٩٤٥ ) .

والثانى انجليزى وهو جورج ويلز ( ١٨٦٦ - ١٩٤٦ ) وقد حاز الاثنان على إعجاب الكبار والناشئة الى اليوم على حد سواء ، لما يقدم لهم من الإثارة والمتعة . وقد تنبأ بأشياء أصبحت حقيقة واقعة فى عمرنا كالوصول إلى سطح القمر واختراع العواصة والطائرة !!٠٠

(١) حامد عبد القادر: دراسات فى علم النفس الأدبى ٢٨ ( لجنة البيان العربى ) .

وإذا كان قصص الخيال العلمي القائم على خيال منطقي مدروس يتيح لنا تلمس الصورة المرتقبة لتطور مستقبلنا ، فإنه يعتبر أنسب الأنواع الأدبية لتعليم الطفل عن طريق إثارة خياله وتقديم المعلومات من خلالها لاسيما ونحن على أعتاب القرن الحادى والعشرين . والتفاضل بين الدول يتم عن طريق العلم وتقدمه وبجهد العلماء ، على أن يتم ذلك بصورة مبسطة تبعا لكل مرحلة من مراحل العمر . وكلما تجاوب الطفل مع هذا النوع من القصص اتسعت مداركه وتعود عقله على التفكير المثمر بما يقدمه من تنوع المعلومات فى شتى المعارف ، وبانطلاقه الى عوالم جديدة والى أجواء مثيرة للمواقف والأحاسيس والقدرات الإبداعية الكامنة فيه (١) .

ولا يقتصر الخيال العلمى على ما يقدمه من قصص فحسب بل كذلك يبدو ما يعرض الآن من أفلام على أشرطة الفيديو أشد هولا وأكثر تأثيرا من القصص المقروءة ، إذ تستغل كل إمكانات الإخراج الواسعة والخدع والمؤثرات الصوتية بحيث تبدو الصورة أكثر إبهارا وأقوى تأثيرا على عقلية الطفل .

ويشير " جورج لوكاش " الذى أخرج فيلم " حرب الكواكب " فى إجابته عن أسباب الاهتمام البارز بأفلام قصص الخيال العلمى فيقول: " لقد انتهت موضة أفلام القراصنة ورعاة البقر والقصص التى تبحث عن المجرمين ، ولذلك فقد فكرت فى إحياء هذا اللون من الأفلام العلمية التى تعتمد على أسلوب الخيال التى لا يعرف الشباب عنها إلا القليل" (٢) .

على أن ثمة اعتراضا يوجه الى كتاب الخيال العلمى - لاسيما فى مرحلتنا الراهنة من جرائع المغامرة فى تقديم أبطال يتمتعون بقدرات خارقة وصفات بدنية

(١) أنظر : فى أدب الأطفال ١٠٢ وما بعدها .

(٢) د . هادى نعمان الهيتى: ثقافة الأطفال ٢٠٠ ط سلسلة عالم المعرفة ، الكويت .

وذهنية لاحت لها كحلقات السور مان ، وجريندايزر ، والرجل الطوط ، ورجل  
الستة ملايين دولار ، ورجل الأطلانطيس Atlantis ، حيث نرى الأبطال يرتدون  
ملابس غريبة ويأتون من الفضاء بأطباق طائرته ، بعضهم يتم بالقسوة وبعضهم الآخر  
يأكل الزواحف والفئران ويلخ جلده ، وبعضهم يستخدم التكنولوجيا للقضاء على البشر  
ومن ثم يصاب الأطفال أو الكبار ذوو الخبرات المحددة بنوع من القلق والتوجس  
ويستلمون للمخلوقات الغنائية المرعبة وهذا ما دعا "بيلقيه" إلى أن يتبع علاج الأطفال  
بالطريقة السابقة.

إن هذا لا يبنى أن كل ما يقدم لأطفالنا ينجم عنه ضرر محقق وينعكس تأثيره  
على سلوكهم ، فهناك أعمال جادة وناضجة يجب أن نقدمها باستمرار . وهذه نجدها  
في عشرات المجلات والمحف المتخصصة ممثلة في مئات القصص والروايات التي تهتم  
بالاتجاهات العصرية ، وتندد بالحروب والتفرقة وتدعو إلى السلام .

ولقد كان للأجناب فضل السبق في هذا المجال من أمثال " روجيه بوكيسه " <sup>(١)</sup>  
الذي يرى أنه ليس هناك ما يحرك خيال الطفل أكثر من كتاب يقرأه أو ورقة بيضاء  
يكتب ويرسم عليها ، ويقدم هو والكاتبة " مونيك برنارد " كل أسبوع كتاباً جديداً  
للأطفال يطل منه على المستقبل . وأما " هيرج " مبتدع شخصية " تان تان " الذي  
ترجمت مغامراته إلى ١٥ لغة ، ويقرأه الأطفال من السابعة إلى السابعة والسبعين  
- على حد تعبيره - في كل بلاد العالم فهو يعبر عما يدور في أعماق كل طفل ،  
فيحطم أعداء الأطفال من أول الشعابين السامة إلى الشيطان نفسه ماراً باللمسوس  
والساحين وقطاع الطرق <sup>(١)</sup>

---

(١) أنظر في أدب الأطفال ١٠٥

وخير قصة عندنا قدمت لأطفالنا وعبرت عن روح العصر - في رأيي - هي قصة كتبها مجيد طوبيا وهي بعنوان " مغامرات عجيبة " <sup>(١)</sup> والقصة طويلة نسبياً تضمنت معلومات مفيدة للكبار والصغار عن إختراعات حديثة تخترق المجال الجوي ، وأيضاً معلومات عن الزمن والفضاء والتاريخ وأحداثه وكلها مما يشد إنتباه الطفل لغرابة الفكرة ولشغفه بما يحدث في العالم الخارجى ، والقصة تحكى عن الطفل " وليد " الذى أحب صديقه " الروبوت " وإعتاد أن يوقفه بجانبه فى أثناء الاستذكار ويدعه يبيت معه فى غرفته ، لقد أحضره له والده عهد عودته من اليابان ، وكإنسان آلى علمه والده طريقة تشغيله . وينبهه الطفل عندما يعلم أن بكل " روبوت " حاسباً آلياً صغيراً أو عقلاً الكترونياً يخزن معلومات كثيرة فيه يرددها عندما تطلب منه .

ويتوطد العلاقة بين وليد والروبوت ينسى وليد كتبه ، فينبهه الأب إلى ضرورة المحافظة على الوقت ، فيتبرم وليد من نصائح والده ، ويلج بخياله فيحلم بأنه خرج فى رحلة مع الروبوت لزيارة عاتلة الزمن ، ليقدّر قيمة الوقت ويعترف معناه . لقد إستقلا فى رحلتها المثيرة مركبة فضائية تسير بسرعة خاطفة ويشاهد أشياء أثارته فكره : كالرعد ، والبرق ، وشاهد الكرة الأرضية وهى تدور سابعة فى الفضاء الهائل ، وفى أثناء ذلك يلقنه الروبوت معلومات عن الكون والفضاء واكتشاف التلسكوب والأقمار الصناعية وأقمار التجسس وفائدة كل منهما ، كما حدثه عن رحلات الفضاء التى أقدم عليها الروس والأمريكان منذ عام ١٩٥٧ .

ثم يصلان إلى قمر الزمان ، وهو ساعة ضخمة لا مثيل لها فى أى مكان ، ويقابلان الجدة الكبرى أو الملكة صاحبة قمر الزمان وعميدها " القرن " وقد قدماهها إلى أولادها وأحفادها ، أى السنة ، والشهر ، واليوم ، والساعة ،

(١) صدرت عن الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ .

والدقيقة ، والثانية . وتحدث وليد إليهم جميعا كما تحدث إلى الأعوام النائمة فى فندق التاريخ منذ الأزل ، وهو ملحق بقصر الزمان . وقابلا حارس الفندق الذى يسخر منه وليد ومن ملبسه ، وينتقم الحارس منه فيرسل عليه برد شهر يناير ثم حمر شهر أغسطس وهكذا تقلب بين البرد القارس ، والحر اللافت حتى شعر بالإعياء .

وهنا يستنجد " الروبوت " بالملكة ويقدم وليد اعتذاره لها وللحارس ، الذى يفتح لهما البوابة ليريا جميع الأعوام التى إنتهت نائمة ، ويمرا عليهما ويتأملوا بعضها كعام ١٩٢٣ وكان وجها مشرقا - قوى الملامح - كما شاهدوا أعواما أخرى فى حالة سيئة لهذه التى تقع بين الأعوام ١٩٤٥ و ١٩٣٩ وكانت تئن ألما وجميع أجسادها مثقلة بالجراح . ويعلم وليد أن تلك الأعوام هى سنوات الحرب العالمية الثانية .

ثم أراد وليد أن يعرف شيئا عن الأهرام فأيقظ الأعوام التى بنيت فيها الأهرام ، والأعوام التى إحتل الفرنسيون فيها مصر وإكتشف حجر رشيد . وفك شامليون الغاز اللغز الهيروغليفية بعد دراسة إتمرت عشرين دورة شمسية تمكن بعدها علماء التاريخ من قراءة ما نقش على المعابد المصرية وما تضمنته أوراق البردى التى حفلت بالكثير عن قدماء المصريين .

وفى تمام السابعة صباحا أيقظ الروبوت صديقه وليدا فيستعيد مسأ رآه

فى أثناء الليل ثم يتساءل : أكان كل ما رآه حلما أم حقيقة ؟

- أحقا كنا معا فى رحلة علمية إلى قصر الزمان ؟

وهل حقا قابلنا ملكة الأوان ؟ ثم زرنا فندق التاريخ حيث

الريس بندق حارس الفندق ؟

- تلك تلك . تلك تلك .

ضحك وليد وقال :

لعلنى كنت أحلم .

ويتبين من جو القصة أنها من نوع الفانتازيا المقبولة تربويًا ، ومن ثم فهي تبدو مطلوبة للطفل في سن معينة وقد حبكت على نحو قرب المسافة بين القصة الواقعية والقصة اللاواقعية ، وقد أقامها المؤلف على شخصيات مطحة أو جاهزة منها الروبوت ، والملكة نفسها ، وكذلك الأعوام مع أنها في الواقع المعيشى مجرد حركة محسوبة ومقدرة وجدها المؤلف لبراز ما يهم من عنمر التقدم العلمى المذهل حتى ولو كان خيالاً لا تثبت صحته عملياً ومن جانب آخر حفلت القصة بقيم أخلاقية بعدت تماماً عن المباشرة أو التوجيه الآلى الذى يصعب على الطفل أو الحدث قبوله والانصياع لمضامينه ، فضلاً عن تقديم سهل لمقولة فلسفية معقدة تقرر أن العلم لا يمكن أن ينهض وحده لخدمة البشرية ، إذا لابد معه من الإيمان بقيمة الإنسان وبأخلاقياته ، وأما ما جاء - عن الوقت - الذى هو كالسيف - فمستهلك تماماً كما إستهلكت العادات المصاحبة للقلق ومنها قضم الأظافر الذى قرر الروبوت أنه عادة سيئة وضارة بالصحة .

وعلى الرغم من أن المؤلف لم يبعد كثيراً بخياله - وربما كان أبعد ما قدم هو تجسيد الزمن - فإن القصة فى مجموعها لم تقع فى السردية إلى مدى كبير ، مع أن هناك إجماعاً على أن القصص العلمى عادة لا يميز فنياً بين الوصف فيها واطراد الوقائع القصصية وبين الهدف الأخلاقى والحوار ، فغالبا ما يضيع كل ذلك فى " طرافة " السياق ويتداخل بعضه فى بعض الآخر على نحو لا يلزمنا بخانسات نعزل فيها نقدنا للمقصد السردى عن جماليات التخيل .

لقد أعطانا المؤلف كونا كاشناته معقولة ومقبولة ، وعن هذه الطريقة التخيلية وضع أمامنا " فلسفة " محددة أمام الإنسان فى روتين الحياة المطرد ،

وما مصيره والكومبيوتر - من حيث هو آلة صماء مفكرة - يدفع به إلى المجهول ؟  
هل نستطيع أن نواجه غيرنا بسلام والعقل الالكتروني يحتملنا أو يريد أن  
يبتلعنا إلى الأبد ؟

لقد فطن " جول فيرن " من قبل إلى خطورة هذا الاحساس فقال نرى أول  
كتبه " خمسة أسابيع بداخل منطاد " ١٨٦٣ : ستكون فترة مؤلمة جدا تلك التي  
تمتص فيها الآلة كل شيء لصالحها . فالابتكارات والآلات التي يخترعها الرجال  
سوف تبتلعهم يوما ، وإننى أتوقع أن آخر يوم في حياة هذا العالم سيكون ذلك  
اليوم الذي تنفجر فيه الأرض بواسطة مرجل ضخم درجة غليانه ثلاثة مليسارات  
وحده جوية " (١)

لقد حذر هذا الكاتب من الاعتماد على الآلات وحدها ومن اختراع الإنسان  
لأشياء تكون نهاية العالم بتدبير منها فهل نراه تنبأ بما يحدث الآن ؟  
ومع ذلك فإنه إذا كانت العقول الالكترونية تسخر لخدمة الإنسان على نحو  
بسطته قمة مجيد طوبيا فهناك قصص أخرى تعكس لنا مدى الخطورة الناجمة عن  
التطورات التكنولوجية السريعة ، فإن تلك الآلات في إمكانها اليوم التمرد على  
مخترعيها ، ومن ثم تعيث في الأرض فساداً .

ويوصي الكاتب الأمريكي إسحاق اازيموف في كتابه Three Laws of Robots

فيقول : " لا يمح لروبوت أن يلحق الأذى بإنسان أو يتسبب له في ضرر نتيجة  
لامتناعه عن إتيان عمل ما . ويجب على الروبوت أن يصعد للأوامر التي يصدرها  
إليه الإنسان ما لم يكن في ذلك تعارض مع القانون الأول . ويجب على الروبوت  
أن يتولى بنفسه أمر المحافظة على حياته ، ما دام ذلك لا يتعارض مع القانون  
الأول والثاني " (٢)

(١) د . نبيل راغب . دليل الناقد الأدبي ١١١ مكتبة غريب ١٩٨١ .

(٢) أنظر رسالة اليونسكو العدد ٢٨٢ نوفمبر ١٩٨٤ .

ماذا يمكن أن يحدث لو قررت العقول الألكترونية يوماً التمرد ثم السيطرة على العالم ؟ إن هذه الفكرة يعرضها الكاتب د . نبيل فاروق في رواية له بعنوان " العقول المبدنية " ، وهي رواية تدور أحداثها في قالب بوليسى ، والعنصر البوليسى لا يغيب عن تلك القصص الخيالية العلمية ، إذ غالباً ما يكون هناك شيء ما يجب الكشف عنه أو العثور عليه ، وقد يكون هذا الشيء شخصاً ما ، أو مكاناً بعينه ، أو دافعاً مجهولاً من خلال أحداث كثيرة تأخذ بلب القارى .

وللكاتب نفسه مجموعة أخرى من الروايات تنقلنا إلى الكواكب البعيدة ، أو تبحث عن سر الخلود ، يفكر أيضاً فيما يسمى بلعنة الفراعنة ، أو بمن يملكون قوى عقلية خارقة وغيرها من الأفكار المثيرة . كل هذا من خلال مجموعة من الأفراد يكونون فريقاً تم اختيارهم بدقة للعمل في القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية من أجل حماية التقدم العلمى فى مصر ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية التى هى مقياس تقدم الأمم .

وأعضاء الفريق فى كل رواية من رواياته هم الرائد نور الدين محمود وهو من أكفأ ضباط المخابرات العلمية ، وزوجته المهندسة سلوى خبيرة الاتصالات والتتبع ، والطبيب رمزى المتخصص فى الطب النفسى ، ومحمود الأحماسى فى علم الأشعة ، وكل هؤلاء يعملون على تحدى الغموض العلمى والألغاز المستقبلية التى تقف فى طريقهم .

وتدور أحداث رواية " العقول الاللكترونية " فى القرن الواحد والعشرين بعد أن تقدمت الآلات تقدماً هائلاً ، وأصبح محور الاعتماد الرئيسى فى جميع المجالات على العقول الاللكترونية ، وظهرت أنواع متطورة منها : أجهزة الكمبيوتر الناطقة ، ثم المفكرة ، ثم المفكرة ذات الذاكرة البصرية ، وأخيراً الأجهزة ذات المشاعر . وقد ربطت كل أجهزة الكمبيوتر فى الدولة بجهاز واحد قوى يضم أجهزة التحكم الرئيسية وهو ما يعرف بالخلية الأم تماماً كما تترايط خلايا المخ البشرى بعضها ببعض .

فماذا يمكن أن يحدث لو زودت الخلية الأم بمشاعر إنسانية كالحسب ،  
والكراهية ، والرحمة والغرور أو الشعور بالعظمة . إذن لاند أن تشعر بأهميتها ،  
وتتمرد على صنعيها من البشر ، وهذا ما حدث فعلا في هذه الرواية .

يضعنا الكاتب منذ البداية أمام اللغز مباشرة ، فقد أنهك المهندس  
" محمود" خبير الأشعة في حل بعض المعادلات ، ولم يلبث أن أدار أحد أجهزة  
الكمبيوتر العديدة التي تملأ الحجرة ليساعده على حلها ، ولكنه يفاجأ بالكمبيوتر  
الناطق يقول في تحد : " لست أرغب في اجابة هذا السؤال ، ولن أجيب على أسئلتك  
إلا عندما أريد " . تملك محمود الدهشة فقفز إلى كمبيوتر آخر ليسأله هل عبت  
أحد في أسلاكه أو أضاف إليه شيئا ؟ وكان ينتظر منه إجابة شافية بالأرقام ولكنه  
يفاجأ بالجهاز الثاني يقول : معذرة .. لا يمكنني أن أخون زميلا " . وهنا يتراجع  
محمود في ذعر ، فقد وقع ماظنه العلماء يوما مستحيلا " لقد تحدثت علينا  
العقول الآلية التي صنعناها بأيدينا " (١).

ثم ينتشر الخبر وتعم الدهشة وكان هناك من يظن أن الموضوع نوع من  
العبث ، وثمة من يرجح أن العلم تمكن من صنع الكلى الصناعية والرتة المناعية  
والقلب الصناعي ، فما ذا يمنع ظهور المخ الصناعي ولو بطريق الصدفة .

ويتولى فريق القيادة العليا للمخبرات المصرية برئاسة الرائد نور مهمة  
إماطة اللثام عن اللغز الخطير ، وذلك بأمر من القائد الأعلى ، قبل أن تسيطر  
العقول المعدنية على ملايين البشر ، ويبادروا بالذهاب إلى صني التحكم الآلي  
لمعاينة العقل المفكر للعقول الالكترونية في مصر .

ويذهل الجميع عندما صرح لهم الكمبيوتر بأنه ينوي أن " أصبح أمبراطور  
العقول المفكرة على الإطلاق المعدنية والبشرية أيضا " ويطلب بأن يعترف به

(١) العقول المعدنية ٥ المؤسسة العربية الحديثة .

امبراطورا وإلا حطم كل ما يمكنه بلا رحمة .

وتجرى مباحثات مع المسؤولين فى المبنى ليعترف أحد المهندسين ويدعى "أسعد سمير" لنور بأنه حاول تطوير الجيل الثامن عشر من الكمبيوتر فأضاف برنامجا جديدا إلى الخلية الأم ليمنحها ما يعرف باسم المشاعر البشرية ، وليصنع بذلك جهاز الكمبيوتر المتكامل أعظم منجزات العصر . ولم يكن فى تصورهِ أن يصاب الكمبيوتر بالغرور أو يخلق منافسا جديدا للبشر .

وهنا يأمر "نور" بالقبض عليه لأنه خالف قواعد البحث العلمى وحمله ممثلية أكبر كارثة متواجه الجنس البشرى . كل هذا والفريق يعمل فى سرية تامة . كان على الفريق أن يثبث تصورهِ لهذا الموقف ويحاول نور أن يجد شفرة ينفذ منها فى البرنامج الذى وضعه المهندس أسعد سمير . وظل نور يتعهد هذا الموضوع بكل حماس بالرغم من تلقيهِ أمراً من القائد الأعلى بالتوقف . وأخيراً استعان بالمهندس "جلال" خبير الكمبيوتر الأول فى المركز وأكثر الجميع خبرة بالخلية الأم ، وهو الوحيد القادر على هزيمتها . وعندما يعرض نور عليه المساعدة يقول له : تريدنى أنا أن أتحدى امبراطور الآلات المفكرة ؟

وكانت كلمة "امبراطور" هذه بمثابة الخيط الأول الذى تمكن نور من خلاله حل اللغز ، فلا يعرف هذه الكلمة إلا هو وأفراد فريقهِ فقط ، فكيف عرفها هو ؟ .

وتنحصر الشبهة فى المهندس "جلال" وكان هذا ضوء أنار الطريق أمام المحقق ليقدّم لنا نقطة التحول فى إطار مناقشة اللغز وقيل الحل .

ويستعين الرائد نور أيضا بالدكتور رمزي باعتباره خبيراً فى الطب النفسى لوضع خطة لمواجهة تمرد الآلة لأنها تملك الآن مشاعر بشرية . وطلب منه إحضار حقنة "بنتوتال الصوديوم" أوصل الحقيقة ، ويعترض جلال على خطة نور ولكنه يصر على اصطحابه إلى جهاز الكمبيوتر الأم ويبدأ خطته فيطلب من الكمبيوتر

السماح له بالدخول ويدور بينهما حوار يعرف منه أن الكمبيوتر يريد أن يصبح امبراطورا وأن يعاونه المهندس جلال لطفى . وهنا يدرك نور حقيقة الموقف فيتقدم نحو جلال لطفى وينرس حقنة البنتوثال فى ذراعه ليعرف منه الحقيقة كاملة . وبأنه وضع بذكائه برنامجا آخر جديدا مخالفا لبرنامج المهندس أسعد سمير ، اذ يتضمن شخصيته بحيث يمكنه السيطرة وتحقيق طموحاته وقد زوده ببرنامج للدفاع عنه مواجهها أى إعتداء . ثم يعترف بالرقم الكودى الذى يسمح له بفتح البرنامج الجديد ، وما إن نطق به حتى استقبله جهاز الكمبيوتر فاستلم فى الحال .

لقد سبق أن بينت طبيعة تلك الرواية ، فهى بنية تجمع بين " رواية الخيال العلمى " و " الرواية البوليسية " أو " رواية اللغز " وبناءً وحكمة الروايسة يقوم أساسا على إمطة اللثام. عن اللغز وتحدد الإطار العام بتقنية العلم وانجاز الحضارة ، بل كان هناك نوع من التنبؤ بما يمكن أن يحدث فيما بعد ، فقدم لنا المؤلف تصورات عن الحياة المقبلة المعتمدة كلية على الآلة وبث فيها جوانب من الطموح الإنسانى الذى قد يتسلل إليه الشر تسلله إلى كل حى من البشر .

وهنا يزداد وعى الناشئة بذواتهم ، ويلفتون إلى المنجزات العلمية فى تطورها المذهل . وفى الوقت نفسه يحذرهم من سيطرة الآلة إذا غفلت قدراتنا العقلية وحدت مهارتنا اليدوية - ويشور من هنا السؤال الأبدى إلى أين يقودنا التقدم العلمى المستمر ؟ أتكون الغلبة والسيطرة على الأرض لحقنة من العقول الالكترونية ، وتحقق بنى الانسان ؟

يقيم الكاتب أساس الصراع داخل الرواية على هذه الشاكلة ، حيث يؤسس دراما الانسان بين طرفين : الانسان الفطرى وقد تسلح بعقله والانسان المبرمج

أو الآلة المبرمجة ومن وراثها حلم بالسيطرة والطموح تمثله رغبات ونزعات متمردة .  
وكان من الممكن أن ينتهى الأمر بمأساة لولا إصرار البطل نور على كشف النـمـوس،  
واكتشاف من خطط لجريمة ذكية وقدرات الآلة المبرمجة -

ومن وجه آخر بدأ الصراع عنيفا بين المحقق نور والمهندس " جلال لطفى " .  
وكان كل منهما يمثل فكرة تقف فى مواجهة حاسمة مع الفكرة الأخرى المجرم وضع  
خطة عبقرية لبرنامج تمرد الآلة ، ذلك البرنامج الذى أنفى بها إلى التمرد  
والسيطرة على كل شئ . وأما المحقق فرجل يحمى الدولة من التلاعب بمصيرها  
وهذا ما دعاه أيضا إلى إلقاء القبض على " أسعد " الذى زود الكمبيوتر بمشاعر  
الحب والكراهية دون الرجوع إلى الجهات المسئولة مستندا فى ذلك إلى قاعدته  
أخلاقية .

والمحقق يتميز بذكاءه وبفضول واحترام لآراء أعضاء فريقه ، وبإصراره على  
مواصلة التحقيق لحل اللغز معتمدا على قوة الملاحظة والربط بين الجزئيات خطوة  
خطوة ، مع الانتباه إلى كل كلمة تقال ، وكل هذه مراحل لتعليم الناشئة .

تحول المؤلف إلى راو جعل اللنة واحدة فى كل المواضع لأنها مفروضة من  
العقل ، وهى مناسبة لمستوى الناشئة مبتعدا عن التعقيد ، ويظهر هذا من الحوار  
الذى دار بين نور والكمبيوتر ، فعندما بدأ خطته يطلب منه بخضوع فتح باب  
الغرفة قائلا : خادمك " نور " وزميلاه يطلبون الإذن بالدخول يا جناب الامبراطور "  
ويفتح باب الغرفة بعد أن سر الامبراطور من لهجة نور الخائفة . ويتقدم نور  
نحوه وينحنى أمامه بشكل مسرحى قائلا :

- هل يسمح لى جناب الامبراطور بالحديث ؟

- أجابه الصوت المعدنى البارد .

- تحدث يا فتى .

- اعتدل نور وقال :

لقد وافقت الأمة على مطالب جلالتكم وأسندت إلى مهمة إبلاغك بذلك .

قال الصوت المعدنى :

سأختار معاونى بنفى

لجليه " نور " وهو يبتسم إبتسامة غامضة :

- وعيلتك الأوامر بامولاي الامبراطور .

تردد صوت الكمبيوتر المعدنى الرنان قائلاً :

- إنتهى أختار المهندس جلال لطفى (١) .

وكلفت للفرجة أمام الكاتب مهينة لعرض بعض المعلومات العلمية مثل الكتلة الذرية للنيوترون ، والكتلة الذرية لذرة البلوتونيوم . كذلك عقد مقارنة بين وظائف المخ البشرى وقدرات أجهزة الكمبيوتر من خلال آراء الطبيب النفسانى ، يقول : " المخ البشرى عبارة عن جسم هلامى يحتل تجويف الجمجمة ، ويحتوى على ملايين الخلايا المتوايطة والتي تؤدى كل منها وظيفة خاصة ، وإلى هنا فهناك تشابه كبير بين المخ البشرى ومجموعة العقول الالكترونية المتملة فيما بينها عن طريق الكمبيوتر الأم ، ولكن تركيب خلايا المخ البشرى تفوق مجموع هذه العقول المعدنية تعقيداً وساطعة فى آن واحد ، وذلك لأن هذه الخلايا تصوج بالتفاعلات الحيوية التى تمتحننا أكثر من مجرد الحركة والتفكير . إنها تمتحننا المشاعر والأحاسيس والحواس - تمتحننا الحب والكراهية ، والتحدى والإصرار ، والسعادة والألم " (٢) .

وقد عمد للكاتب - بجانب ذلك - الى وصف تطور أجهزة الكمبيوتر - وتحكمها فى كل شىء ومدى تأثير الدولة لو نجحت ثورة الآلات .

\* \* \*

وهناك قروب من الأعمال القصصية التى تقدم عادة للناشئة متعة لهم ووصولاً بهم إلى العقائده العرجوة ، هذا الخرب هو الذى يمزج عناصر الطبيعة بالنسيج اللغنى اللقصة ويحتاج من ثم الى معرفة شاملة وعلم واسع بقوانين الطبيعة والأحياء .

(١) السابق ٧٥ .

(٢) السابق ٢١ .

وقد شغف الكاتب صنع الله ابراهيم بهذا البعد المتميز الى حد كبير ، وجعل منه موضوعاً لعدد من الروايات تهم الناشئة وتبهيء أذهانهم الى استيعاب الكثير من المعلومات العلمية الدقيقة بطريقة جذابة ، وقد صدرها بمجموعة من الصور انتقاها بعناية من أحدث المصادر للاستعانة بها أثناء قراءة أعماله القصصية .

وتعد رواية " الدلفين يأتي عند الغروب " نموذجاً طيباً لهذا النوع من الكتابة العلمية . وقد استوحى صاحبها فكرته من رواية " حى بن يقظان " لابن طفيل ، كما تأثر الى حد كبير برواية " موبى ديك " للكاتب الأمريكى هيرمان مليفيل . والمعروف أن مليفيل أورد الكثير من المعارف العلمية عن حياة الحيتان فى المحيطات وسلوكها وعاداتها المرتبطة بعناصر الطبيعة وتغيرات البيئة .<sup>(١)</sup>

ركز صنع الله ابراهيم فى روايته ( الدلفين يأتي عند الغروب ) على شخصية واحدة وهى فتاة فى الثانية عشرة من عمرها تدعى نادية اصطحبها أبوها بعد انتهاء الدراسة فوق ظهر سفينة الأبحاث العلمية فى رحلة بحرية ، وعندما عبرت السفينة خليج عدن هبت عاصفة على السفينة فدمرتها وألقت الأمواج بناحية فوق إحدى جزر المحيط فاقتاة الرعى .

فماذا تفعل نادية عندما تسترد وعيها ؟ وما مصيرها على هذه الجزيرة المهجورة ؟ كيف ستواجه الحياة وحدها ؟ وما المخلوقات الغريبة التى ستقابلها وهى بلا سند ولا معين ؟ هل ستنجح فى الخروج من هذا المأزق ؟ ، ومن الذى سوف ينقذها ؟ . أسئلة كثيرة تراودنا ونحن نعيش هذا العمل ونشفق على سوسى الفتاة منذ اللحظات الأولى .

يصفها الكاتب عندما تسترد وعيها ، فهى مذعورة وتنادى أبويها ، ولكن أحداً لم يجيبها . وقفت جامدة تنتظر أمامها فى ذهول فلا ترى حياة سوى أنواع

---

(١) منها " يوم عادت الملكة القديمة " صدرت سنة ١٩٨٢ ، وزعفة الظاهر يقابل الفك المفترس صدرت سنة ١٩٨٢ ، وعندما جلست العنكبوت تنتظر والحياة والموت فى بحر ملون ، والدلفين يأتي عند الغروب ، ط بيروت

عدة من الأسماك كانت تزحف على الأرض وسراطين مختفية داخل أصداف وسلاحف ضخمة تخرج من الماء ، وطيور الفرقاط المتوحشة .

ويصفها أيضاً عندما تملكها مشاعر الخوف والقلق من وجود أشباح أو مخلوقات خفية بهذه الجزيرة بالرغم من إيمانها بأن كل أولئك حديث خرافة .

وهنا تقارن حالتها تلك بحال " حى بن يقظان " الذى ولد فى إحدى الجزر دون أب ولا أم ، وتقارن بين الموقفين ستواجه الوحوش نفسها التى كان حى يدفعها بعضاه ؟ - تذكرت حياً أيضاً عندما غالبها إحاس مفاجئ، بالعطش والجوع فقد عثرت عليه ظبية تولت رعايته وإطعامه ، فمن أين لها هى بظبية ترعاها - أو سلاحاً تعطاد به ؟ وهذا جوعها عندما أكلت بيضة طائر " الخرشنة " أو السنونو البحرى وروت ظمأها من أحد الجداول التى أرشدتها اليه طيور الخرشنة " .

تمالكت الفتاة نفسها ، وكان عليها أعمال عقلها واستغلال ذكائها وخبراتها التى اكتسبتها خلال سنوات عمرها القليلة . لتظهر لنا فتاة جادة تحاول التكيف مع الوضع الجديد الذى فرضته الظروف عليها . ففى النهار يستريح كل شئ انتباهها من مظاهر الطبيعة حولها ومن الحيوانات القريبة التى تعيش على هذه الجزيرة ، والهاكل العظيمة التى استوقفتها وتبينت أنها " لدفين " ربما مات فى البحر وألقى به المد الى الشاطئ وصار جسمه طعاماً للوحوش . وتتساءل :  
وأين هى إذن هذه الوحوش التى جردته من لحمه ؟

وهى فى الليل تتمنى تنفيذ فكرة حى بن يقظان وحصوله على النار بعد أن حك قطع الزلط فتولد منها الشرر ، وفعلاً تنجح فى الحصول على النار التى تستخدمها لانتاج الطعام وإبعاد الحيوانات عنها .

كانت تفتش الرمال الناعمة وتلتحف بالسماء وتتأمل نجومها الساطعة " وكأنما كانت السماء تدنو منها أو هى التى تندفع نحوها لتلتحم بها وتصبح هى

وهذا الكون الهائل العجيب كتلة واحدة (١) ولتكون القزمة سانحة للكاتب لاستعراض معلوماته عن النجوم والمجرات باستفاضة .

كان يداعبها الأمل بين لحظة وأخرى بقدم سفينة تقل أباهما لينقذهما ، فأرادت أن تلتفت النظر بوجودها على هذه الجزيرة فبحثت عن غصن قوى " وخلصت صدارها الموقى الملون ، وربطته الى طرف الفصن من كُمية فرفرف فى الهواء كالراية " (٢) .

ظلت الفتاة تتأرجح بين الأمل واليأس والرجاء الى أن ظهر لها دلفين صغير طفا فوق سطح الماء ، وبظهوره وجدت من يسلبها وتتبادل معه الحديث بصوت مسموع وتحكى له عن ذكرياتها ويصغى هو كالمفتون لصوتها . ينام معها فى كهفها وتعنفه عندما يصرخ ، أسمته " فِينْ فِينْ " واذا نادته تقول له : " اطلع يا فِينْ فِينْ " كما كان يقول على بابا " افتح ياسم سم " .

وشيئاً فشيئاً تتجاوب الفتاة مع البيئة الجديدة ، بل نجدها تشارك فى بعض الممارك التى كانت تنشب بين طيور النورس وصنار الخرشنات وتهب هبى لنجدة الصغار دائماً .

ثم تبدأ فى إجراء عملية تخريح لسرطان بحرى حبسته ولم تقدم له أى طعام فمات . قفز الى ذهنها ما فعله حتى عندما ماتت الطيبة التى ربهته . واستطاعت اجراء عملية تخريح بواسطة قطعة من الصفيح ، وفكرت فى الاجابة عن عدة أسئلة تميزت بطابع علمى ، وقامت بتسجيل ملاحظتها واكتشافاتها التى توصلت اليها على جدار الكهف الذى كانت تعيش فيه كما يفعل كبار المكتشفين ، ولتفاجئى بالاكتشافات أيوبها عندما يأتيان لإنقاذها ولتساهم أيضاً فى صرح العلم .

(١) السابق ٦٧ .

(٢) السابق ٥٠ .

نجحت أيضاً في عمل جبيرة لطائر كسر جناحيه وأنقذت حياته وتولت رعايته حتى تم شفاؤه وأصبح صديقها هو الآخر وأسمته " مينو " .

وأخيراً أثمرت مشهداً لايفارغ في روعته فكان ثمة قارب تجارى يشق المساء بسرعة مقرباً من الشاطيء ، وخلفه سفينة كبيرة أسرع نحوها ، وهبط منها بعض البحارة لتحاصرهما الأسئلة ، وبأنفاس لاهثة تحكى لهم عن مفامراتها واكتشافاتها بعد اطمئنانها على سلامة أسيوها ، وتصطحبهم الى كهفها ليقفوا مبهوتين أمام جدرانها التى امتلأت بالنقوش ، وأرتهم مشرط التشريح والملابس الغريبة التى صنعتها من ريش الطيور .

وكان من الممكن أن ينهى الكاتب الرواية عند هذا الحد أى عند مشهد انقازها ، ولكنه واصل تقدمه فى الرواية حيث قدم لنا مشهداً أكثر روعة وإثارة مزجه بالمشاعر والأحاسيس ، وكان هذا المشهد بين الفتاة وبين صديقها " مينو " فى البداية ، فقد حرصت ألا تنظر نحوه عندما استقلت القارب حتى لاتضعف أمامه ، كان يتبعها هو بنظرة دون أن يجرؤ على الاقتراب منها خوفاً من مرافقيها ، وماكاد القارب يبتعد حتى طار نحوها واستقر فوق كتفها لتخمنه فى انفعال وهي تفكر أنه اختار ألا يفارغها فانها صارت جزءاً من بيئته الطبيعية .

ثم تذكرت الدلفين فنادت عليه بأعلى صوتها على طريقة على بابا " اطلع يافن فِن " وسبح خلفها ، والبحارة فى ذهول من هذا المشهد العجيب .

كانت الفتاة تشعر بسعادة غامرة وفجأة تُصدم فى مشاعرها عندما تقابل قسوة قبطان السفينة الذى كان يرقب المشهد من بعيد ، فأصدر أمراً للبحارة بإلقاء شبكة على الدلفين ولم يحتجب القبطان لتوسلات الفتاة بأن يدعه وشأنه . واستسلم ( فِن فِن ) لهم وبدا أنه يعانى من صعوبة فى التنفس فأسرعت نادبة اليه ورشته بالماء وربتت على رأسه وقدمت له سحكة لكنه رفض فتح فمه .

وفجأة ارتفعت صيحات لدلفين كبير يقترب بسرعة من السفينة كان ثمة رتسة  
توسل ورجاء وتبعته مجموعة أخرى من الدلافين . وكان الصغير يسمع هذه الصيحات ،  
ونادية تواصل توسلاتها . وهنا يتراجع القبطان أمام هذا المشهد مقررّاً الانعراج عنه .  
وتدافعت الدموع الى عيني نادية وهى ترى الحيوانين يتبادلان اللمس ثم يقفزان عالياً  
فى الهواء كأنما يعبران عن سرورهما ثم غاما فى الماء .

ومن الواضح أن الرواية بعيدة عن قصص الخيال العلمى ولاسيما فى اتكائه على  
" المخترعات " الآلية ومجاورة الفضاء الخارجى والتعامل مع الخوارق ، إلا أنها مع  
ذلك لاترفض التسمية من قبيل التوسع ، وتبدو عادية جداً بمواقفها الانسانية العميقة  
وحفلها بالمشاعر العميقة التى تربط بين البشر والحيوان ، وبين صنف الحيوانات  
نفسها ، بجانب أنها تظهر لنا قسوة الانسان فى بعض المواقف .

وقد أتقن الكاتب توظيف معارفه عن البيئات الساحلية البعيدة ، فوصف  
طبيعتها ، وحيوانها وأسمائها العجيبة وصف خبير بها ، ودارسٌ لصفاتها وألوانها،  
وأشكالها ، وأسلوب الحياة لكل منها . كحديثه عن أنواع الأسماك مثل الكوكل ،  
والبرونق ، والحلزون البحرى ، والبطلينوس<sup>(١)</sup> ، والمبيدوك ذى الصدفتين الذى " أعفى  
نفسه من مهام التجوال والبحث عن الطعام ، فقبع فى حفرته التى ثقبها بالأشواك  
الدقيقة فوق مدفتيه ، ومد منها أنبوتين طويلتين تتحدان قرب سطح الصخرة فى  
أنبوية واحدة ، يتلقى بها الماء ثم يطرده ، بعد أن يحصل منه على المواد اللازمة  
لعمليتى التنفس والتغذية " .

واستقطب الكاتب بجانب قمة حى بن يقظان حكايات السندباد البحرى  
ومن أبرز ذلك حلمها الذى راودها بعد أن استبد بها اليأس ، فكان بمثابة الأمل  
والمنقذ لها ، " ومن المحتمل أن يسمع السندباد البحرى بالأمر ، فيهم به ويعرج

بدفينة لانقاذها ، ثم يذهبان سوياً لانقاذ أبيهما أو العكس وإذا كان السندياد قسى بحار الصين ، فكم يستغرق من الوقت حتى يصل الى جزيرة واق واق هذه ، قسـد لايمتفرق الأمر غير بضع ثوان ، اذا كان مازال يحتفظ بالبساط المحرى ، لكن أهـو ذلك الذى كان لديه البساط المحرى " (١) .

لقد غلب على الرواية الوصف والرد وقل فيها الحوار وان تكن اعتمدت على المنولوج الداخلى فى أكثر المواقف ، ويتبين ذلك من المشهد الذى ظهر فيه الدلفين " التقت نظراتهما وخيل اليهما أنها رأّت تعبيراً غريباً يلـمـع فى عينيه كما لو كان بينهما سر مشترك لايعرفه أحد سواهما ، أـيـكون هو الدلفين الذى أنقذها وحملها الى الجزيرة ؟ وهل جاء الآن للاطمئنان عليها " .

وعندما حل الظلام وشعرن بالاعياء والرغبة فى النوم قالت له :

" سأتركك الآن لأنام ، تصبح على خير "

واستيقظت فجأة على أصوات حادة صدرت منه وعندما هرعـت اليه . لـزـم الصمت فخطبته معنفة " لماذا تصرخ ؟ ألا يمكننى أن أنام قليلاً ؟ أيجب أن أبقى بجوارك طوال الوقت " (٢)

وهناك أيضاً ثلاثة مستويات من الصراع صراع البطلة ضد البيئة الجديدة لاثبات وجودها وتعلقها بالحياة ، وصراع بين الطيور وبعضها ويكون البقاء للأقوى فى البداية ثم تتدخل هى لانقاذ صغار الطيور كما حدث عندما هاجم نـورس عشاً للخرشنة والتقط كتكوتاً بمنقاره رغم الصرخات الغاضبة للأم التى حلقت غير بعيد " هبت نادية الى نجدة الكتكوت اليائس ، فأحاطت النورس بساعديها حائلة بينه وبين الطيران ، وأجبرته على التخلـى عن فريسته " وأما الأخير فصراع الاثنان ضد الحيوان ورغبته فى اصطاده غير مهتم بصيحات أهله .

(١) السابق ٢٤ .

(٢) السابق ١٠٦ ، ١٠٧ .

إن قصص الطبيعة الممنوعة يعلم الحياة مجال لانت يحد إليه الناشئة في كل زمان ومكان . وفي ظني أن تحميل المتعة العلمية عن هذه الطريقة أفضل بكثير من التوغل مع الفانتازيا واللاواقعي المطلق . ويجوز لكاتب هذا النوع من القصص - كما فعل صنع الله ابراهيم - أن يهمل الحكمة القصصية التقليدية تاركاً مقتضيات اصطلاحاتها كالحكي والحوار والشخصية والاقتمار على الوصف الهادف .

وفي ظني أيضاً أن " القمصية " غالباً لاتعنى بهذا الجزء أو ذلك من أجزاء العمل القصصى ، وإنما تعنى بالبنية متكاملة ودالة ، وقد وضحت الدلالات تماماً عند صنع الله ابراهيم .

وأنا لا أقرظ هذا الكاتب بذلك ، وإنما انبه فقط الى ضرورة التصرف فى عدد من القيم النقدية ، طالما كانت البنية صالحة لأن تفضى أو تبت أو تمنع .

\*\*\*

وعلى هذا فان " أدب الناشئة القصصى وعلوم المستقبل " يستهدف أساساً تربية الانسان المفكر الإيجابي منذ الصغر .

وإن القصص فى هذا الحقل متنوعة حتى إننا نعجز عن حصرها فضلاً عن بيان تقنياتنا ، ومع ذلك فهى تتفق فى شيئين :

أولهما : تنشيط خيال الناشئة وتوجيهه الى ما ينفع الناس .  
ثانيهما : امتاع الناشئة بأسلوب الحكى المبسط الذى لاتنفع أفكاره فى بلاغيات الكتاب الكبار .

وأخيراً إن " الحكمة " فى قصص الناشئة القائمة على الخيال العلمى " أقل " غرابة وعنفاً مما يمدد عنه الكتاب الذين يتجهون الى الكبار ، واعتماد " الحكاية العثيرة " فيها أساساً جعل الاتجاه الى السرد الوصفى واجباً لبيان وضوحه أو استوائه أو غموضه فى بعض الجوانب ، وفيما عدا ذلك لامجال لتطبيق الأحكام الفنية التى خصصت لتقويم فن القصة بوجه عام .